شؤم المعصية

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كان السلف الصالح رضى الله عنهم ، إذا نزل بأحدهم بلاء أو شكا من أمر من أمور الدنيا حل به ، رجع فى ذلك إلى نفسه ، وعاد باللائمة عليها ،وقال : لا بد أنى قد أذنبت ذنبًا ، لا بد أنى قد قصرت فى حق الله تعالى ، لا بد أنى فرطت فى جنب الله ، ظلمت عبدًا من عباد الله ، ضيعت فريضة من فرائض الله ، انتهكت حرمة من حرمات الله ، فسرعان ما يرجع إلى ربه ويقرع بابه تائبًا مستغفرًا ، ويقول ما قاله أبوه آدم وأمه حواء ، حينما أخرجا من الجنة : ﴿ . . .رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

هذا شأن الإنسان المؤمن ، إذا أصابه خير ردّ الفضل إلى الله ، وقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وإذا أصابه شر لم يلم إلا نفسه ، ولم يتهم إلا نفسه : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٢) .

هكذا كان شعارهم ، وهكذا كان ديدنهم ، هذا هو شأن المؤمن ، أن يرجع كل فضل إلى الله تبارك وتعالى ، فهو صاحب الفضل والنعمة : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ . . . ﴾ (٣) ، وأن يرجع كل شر إلى نفسه .

كان بعض السلف رضوان الله عليهم يقول : إنى لأرى شؤم معصيتى فى سوء خلق امرأتى ودابتى ، يعنى إذا نكدت عليه امرأته ، أو حرنت عليه دابته ، يقول : لا بد أنى قد ارتكبت معصية من المعاصى .

كل شىء كانوا يعودون به إلى شؤم المعصية ، فللمعاصى آثارها الوخيمة فى

---

(١) الأعراف : ٢٣ . (٢) النساء : ٧٩ . (٣) النحل : ٥٣ .

الدنيا والآخرة ، يقول ابن عباس رضى الله عنهما : إن للحسنة ضياء فى الوجه ، ونورًا فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة سوادًا فى الوجه ، وظلمة فى القلب ، ووهنًا فى البدن ، ونقصًا فى الرزق ، وبغضًا فى قلوب الخلق .

بعض الناس يظنون أن شؤم المعاصى وعقوبتها مؤجل إلى الآخرة ، إلى حساب الله يوم القيامة ، لا ، هناك حساب فى الآخرة ، وهناك حساب فى الدنيا ، يعجل الله للناس بعض العقوبة فى الدنيا ، وخاصة إذا لم يعاقبوا العقوبات الشرعية فإن العقوبات القدرية لهم بالمرصاد .

هناك عقوبات شرعية على بعض المعاصى ، هناك حدود وتعازير ، هناك الجلد للزانى ، الجلد للسكير ، القطع للسارق ، الإعدام لقاتل العمد ، إلى آخر ما جاء به القرآن ، وجاءت به السنة ، وأجمعت عليه الأمة .

فإذا نفذت هذه العقوبات الشرعية ، وأقيمت حدود الله فى أرضه ، كان ذلك أخف على الناس من العقوبات القدرية ، ولذلك ورد فى الحديث : « حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا » (١) .

حدّ لله يقام بحقه على من يستحقه ، وبعد استيفاء شرطه ، أزكى وأبرك على الأرض من مطر أربعين صباحًا ، لأنه لا خير فى أن تمطر السماء ، وتنبت الأرض، ويثمر الثمر ، ثم يأكل هذا كله بعد ذلك : الزناة والسكيرون والعربيدون والفجرة الذين يظلمون الناس ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويطغون فى البلاد ، فيكثرون فيها الفساد .

فإذا لم تقم الحدود ، وإذا لم يعاقب المفسدون ، إذا ضيّع الناس العقوبة الشرعية، فإن السماء تنزل عقابها على الناس .

---

(١) الحديث روى بألفاظ مختلفة عن أبى هريرة ، وهذا لفظ ابن ماجه برقم (٢٥٣٨) ، ورواه النسائى (٨/ ٧٥ ، ٧٦) وابن حبان فى صحيحه كما فى موارد الظمآن (١٥٠٧) ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٥٠ ، الحديث ١٣٩٦) .

إن العقوبات السماوية . . . العقوبات القدرية . . . العقوبات الكونية ، لهم بالمرصاد ، وإذا نزلت فإنها تنزل على الجميع ، العقوبات الشرعية تخص فلا تصيب إلا من يستحقها ، أما العقوبات القدرية السماوية فإنها تعم : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

حينما ينزل البلاء ، حينما ينزل شؤم المعصية على الناس ، يصيب الجميع ، الصالح والطالح ، الطالح لطلاحه ، والصالح لسكوته على المنكر ، وعدم تغييره له ، فإذا اشترك الناس فى ترك المنكر ، فإن الله يوشك أن يعمهم بعقاب من عنده .

المعصية شؤم على الناس ، شؤم على الفرد فى حياته ، تصيبه بالقلق ، تصيبه بالرعب ، تصيبه بالأمراض ، تصيبه بكل ما يعكر عليه صفوه ، وما ينغص عليه عيشه ، إنها (المعيشة الضنك) كما قال الله تبارك وتعالى حينما أنزل آدم وزوجه إلى الأرض : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (٢) .

وقد يعيش الإنسان هذه المعيشة الضنك ، وعنده الآلاف والملايين ، إن الضنك فى نفسه ، إن الضنك فى صدره ، إن هذا كله فى داخله ، يشكو منه رغم أن معه الآلاف والملايين ، الرعب يملأ قلبه ، يخاف من كل شىء ، يخاف من الأمراض ، يخاف من الموت ، يخاف من المستقبل المجهول ، يخاف من فقدان النعمة ، يخاف من نزول النقمة ، وهذا كله من شؤم المعصية .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإنّ المعاصى تزيل النعـــم

وحطها بطاعة رب العبـــاد ... فربّ العباد سريع النقـــم

إن الناس عندما يشكرون نعمة الله ويستخدمونها فى طاعته ، فإن الله عز وجل يحفظها عليهم ، ويزيدهم منها ، أما إذا كفروا نعمته ، إذا بطروا بها ، إذا لم يؤدوا

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

(٢) طه : ١٢٣ - ١٢٦ .

حقها ، إذا أصبحت النعمة فى أيديهم مصدرًا للمعصية ، وسببًا للإعراض عن الله ، فإن الله سرعان ما يعاقبهم ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

إن النعم إنّما أعطيت للناس ليستعينوا بها على طاعة الله ، لتكون أداتهم للوفاء بحق الله وشكره ، أما إذا استخدموها فى المعصية ، إذا آتى الله الإنسان المال فجعله سببًا فى الفساد ، إذا أتاه الصحة فاستمتع بصحته فى الشهوات المحرمة ، إذا آتاه العقل فلم يفكر به إلا فى الشر ، إذا أصبحت نعم الله على الناس وسائل لمعصيته ، فإنهم لا يستحقونها ، لا يستحقون أن تبقى هذه النعم عندهم ، يجب أن تسلب منهم ، وقد لا تسلب منهم فجأة ، وإنما تسلب منهم رويدًا رويدًا ، يذكرون بالنذر شيئًا فشيئًا ، فإذا تذكروا ، وإذا اتعظوا ، وإذا انتبهوا من غفلتهم ، وصحوا من سكرتهم ، فإن الله جدير أن يقبل منهم ، أما إذا سدروا فى غلوائهم ، وظلوا على كفرانهم ، فإن النعمة جديرة أن تسلب منهم وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (٢) .

إن الطاعة والاستقامة ، والتقوى لله عز وجل ، هى التى تمنح الناس الحياة الطيبة فى الدنيا ، والأجر الحسن فى الآخرة : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

وليست الحياة الطيبة بكثرة المال ولا بالرفاهية ، فقد كان الناس فى هذه البلاد قبل عصر (البترول) ، وقبل الملايين التى يعبث الناس بها اليوم ، كانوا يعيشون عيشة طيبة ، كانوا متعاونين فى السراء والضراء ، كانوا قانعين بالقليل ، راضين به ، كانوا مطمئنين إلى حياتهم ، كانوا يحب بعضهم بعضًا ، كان يأمن كل واحد منهم أخاه على نفسه وماله وعرضه ، كانت حياة طيبة ، فماذا صنع الناس حينما تدفقت عليهم الثروات ، ووسع الله عليهم فى الرزق ، وأفاء عليهم من فضله ، وفجر الأرض تحت

---

(١) النحل : ١١٢ . (٢) إبراهيم : ٧ . (٣) النحل : ٩٧ .

أقدامهم بالذهب الأسود ، ماذا فعل الناس إزاء هذه النعمة ؟ هل حفظوها ؟ هل بقوا كما كانوا من قبل ؟ أم أصبحنا نسمع ونرى ونقرأ ، ما يصنعه أصحاب الثروات، الذين يلعبون بالملايين فى بلاد الكفر ، وينفقونها فى الخمر والميسر والنساء؟ ضيعوا الأموال ، وضيعوا الحقوق : حق الله وحق عباده ، فضاع كل شىء بعد هذا .

إن المعصية شؤم على الفرد ، شؤم على الجماعة ، شؤم على الناس جميعًا ، شؤم على البهائم والكائنات الحية جمعاء ، حتى قال أبو هريرة : إن الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم ! وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتد القحط وأمسك المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم !

وللإمام ابن القيم كتاب عن (الداء والدواء) [1] ذكر فيه من الآثار السيئة للمعاصى ما يزيد على المائة ، وهو كتاب ينبغى أن يقرأ ، حذرًا من عواقب المعصية وشؤمها فى الدنيا قبل الآخرة .

ومن هنا ينبغى أن يرجع الناس إلى الله ، وأن يقولوا كما قال الربانيون : ﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [2] ، حينما أصاب الربانيون فى القتال ، وقتل منهم من قتل ، لم يهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، ولم يضعفوا ، ولم يستكينوا ، ولكنهم حينما دعوا الله ماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ﴾ ، اتهموا أنفسهم ، فيجب على الناس أن يتهموا أنفسهم ، وأن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، سنة من سنن الله لا تتبدل ، وقانون من قوانينه لا يتغير ، اسمعوا قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

لو آمن الناس واتقوا واستقاموا ، لتنزلت عليهم البركات من السماء ومن

---

(١) وله عنوان آخر هو : (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى) ، وقد سبق التعريف به فى ص ٣٨ .

(٢) آل عمران : ١٤٧ .

(٣) الأنفال : ٥٣ .

الأرض، من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، هذا هو قانون الله الذى سجله فى كتابه ، اسمعوا معى هذه الآيات : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحتَسِبُ ... ﴾ (١) ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِه يُسْرًا﴾(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... ﴾ (٣) ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (٤) .

هذا هو قانون الله : لو آمن الناس واستقاموا واتقوا ، لتفتحت عليهم بركات السماء والأرض ، ولازدادوا كل يوم من نعم الله ، ولكن كذبوا ، ولكن فجروا ، ولكن كفروا بالنعمة ، وبطروا بها ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، فجاءتهم النذر، نذر بعد نذر ، تنبههم أن مالك الملك ، وخالق الخلق ، ومدبر الأمر ، يمكن أن يغير حالهم ، لا تظنوا أن الأمور تجرى كما تشاؤون ، لا ، هناك قدر أعلى ، هناك من ينظم هذا الكون ، هناك إله عظيم ، يحكم لكل بما يستحق ، وعلى كل بما يستحق .

فينبغى أن يتنبه الناس لهذه النذر ، ينبغى أن يربط الناس بين ما يصيبهم وبين ما يصنعون ، هذا هو شأن الإنسان المسلم ، الإنسان الصادق مع نفسه ، الصادق مع ربه .

إذا آمن الناس واتقوا ، تنزلت عليهم البركات ، أما إذا لم يؤمنوا ولم يتقوا ، فلن تتنزل عليهم البركات ، وإنما تتنزل عليهم اللعنات ، فالمعصية ليس وراءها إلا اللعنات .

لقد لعن الله فى كتابه أناساً من الناس ، لعن الذين يفسدون فى الأرض ، ويقطعون أرحامهم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٥) ، لعن

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣ . (٢) الطلاق : ٤ . (٣) المائدة : ٦٥ - ٦٦ .
(٤) الجن : ١٦ . (٥) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب [1] ، لعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات [2] ، لعن كثيرين من أهل المعاصى ، لعن الظالمين ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [3] ، لعن الكاذبين ﴿ ... ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[4] .

ولعن رسول الله ﷺ فيما صح عنه من الأحاديث كثيرين ، لعن شارب الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها ، لعن فيها عشرة[5] ، لعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه [6] ، لعن الواصلة والمستوصلة[7] ، والواشمة والمستوشمة [8] والنامصة والمتنمصة [9] ، والمغيرات

---

(١) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ٢٣] .

(٣) هود : ١٨ .

(٤) آل عمران : ٦١ .

(٥) روى أنس رضى الله عنه : « لعن الرسول ﷺ فى الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشترى لها ، والمشترى له » رواه ابن ماجه ، والترمذى واللفظ له ، وقال : غريب من حديث أنس ، وقد روى نحو هذا عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر عن النبى ﷺ ، فالحديث صحيح بشواهده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٥٢ ،الحديث ١٤٠١).

(٦) روى جابر رضى الله عنه : « لعن النبى ﷺ : آكل الربا ، ومؤكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال هم سواء » رواه مسلم وغيره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٣٤، الحديث ١٠٥٦) .

(٧) الواصلة : التى تصل الشعر بشعر النساء ، والمستوصلة : المعمول بها ذلك .

(٨) الواشمة : التى تغرز اليد أو الوجه بالإبر ، ثم تحشى ذلك المكان بكحل أو نحوه ، والمستوشمة : المعمول بها ذلك .

(٩) النامصة : التى تنقش الحاجب حتى ترقه ، والمتنمصة : المعمول بها ذلك ، وقد ورد ذكر هؤلاء فى حديث لابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعنت الواصلة والمستوصلة ، والنامصة والمتنمصة ، والواشمة والمستوشمة من غير داء » رواه أبو داود وغيره ، وهذا الحديث وما فى معناه ، يدل على تحريم الشعر الصناعى ، الذى يسمى فى عصرنا : (الباروكة) ، =

خلق الله ، لعن الراشى والمرتشى والرائش [1] ، لعن ولعن عشرات من الناس ، تنظر إليهم فنراهم حولنا ، بل لو نظرنا إلى أنفسنا ، لو نظر كل منا إلى نفسه ، لوجدها بوجه من الوجوه ، تستحق شيئًا من هذه اللعنات والعياذ بالله .

فما الحال فى أمة ملعونة ، مجتمع تتنزل عليه لعنات الله ، ويحرم من بركات السماء ؟ .

إن على الناس أن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، وأن الله لا يغفل عما يفعل الظالمون ، وعما يقترفه العاصون ، ولكنه يمهلهم ، ثم يذكرهم ، يذكرهم ببعض العقوبات كما قال عز وجل : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [2] .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ والْبَحْرِ ﴾ فى كل مكان ، فى القرى والمدن ، فى الشرق والغرب ، فى الداخل وعلى السواحل ، الفساد هو العقوبات الإلهية : الغلاء، البلاء ، المرض ، القحط ، الخوف ، الرعب . بماذا ؟ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾: أى أن هذا إنما ينزل بسبب معاصى الناس وذنوبهم ، ﴿ لِيُذِيقهم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا﴾: إنه لا يجازيهم بكل ما عملوا ، وإلا لزلزل بهم الأرض ، أو أنزل

= ويستثنى منه ما إذا أصاب المرأة ما يشوهها ويؤذيها ، كالصلع أو ما يقرب منه ، نظرًا للضرورة، وانتفاء التدليس والله أعلم ، كما يقاس على قوله : « من غير داء » عمليات التجميل لغير حاجة موجبة ، بل لزيادة الحسن ، نقلاً عن تعليق الشيخ على الحديث ١٢٢٩ ، فى كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب ، ٥٩١ - ٥٩٢) بتصرف .

(١) الراشى : هو الذى يبذل المال ليتوصل به إلى الباطل : والمرتشى : آخذ الرشوة ، والرائش : هو الذى يسعى بينهما ، وورد ذكرهم فى حديث لأبى هريرة رضى الله عنه قال : «لعن رسول الله ﷺ : الراشى ، والمرتشى فى الحكم » رواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الصغير ورجاله ثقات ، وزادوا : «والرائش » ، وهذا الحديث وما شابهه يدل على القاعدة الإسلامية : إن الإسلام إذا حرم شيئًا، حرم كل ما يفضى إليه ويساعد عليه ، وانظر : (المنتقى : ٦١٨/٢ ، باب : ترهيب الراشى، والمرتشى ، والساعى بينهما) .

(٢) الروم : ٤١ .

عليهم كسفًا من السماء ، أو أغرقهم بطوفان ، إن الله لا يؤاخذ بكل الأعمال ، ولا بكل الذنوب ، بل ببعضها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا من دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) ، ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢) ، حتى الشوكة تشاكونها ، هى بسبب ما كسبت أيديكم : ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ : لا يحاسب على كل شيء ، ولا يؤاخذ بكل شيء .

لا بد أن يسأل الإنسان نفسه : لماذا أصابنى ما أصابنى ؟ كما سأل الصحابة أنفسهم بعد غزوة أحد ، حينما خالفوا ما أمرهم به النبى ﷺ ، وتركوا ظهرهم للمشركين، فكان أن قتل سبعون من خيارهم ، فلما سألوا أنفسهم ردّ عليهم القرآن: ﴿ أَو لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

هكذا ينبغى أن نحاسب أنفسنا أيها الإخوة المسلمون . ينبغى أن ننظر فيما حولنا، وفيما جد من أمورنا ، فنقول : ماذا حدث ؟ ما الذى جرى ؟ ما هذه المقادير السريعة التقلب ؟ أى شيء صنعناه ؟ هل نحن ملائكة مقربون وعاقبنا القدر بما لا نستحق ؟ أم فرطنا وقصرنا وخالفنا ؟ وهل تكفينا هذه النذر لنرجع ونصطلح على الله ، ونضع أيدينا فى يد الله ؟ أم سنظل فى الطريق الشيطانى سادرين ؟

إنها فرصة للتوبة ، وقد قال الصحابة رضى الله عنهم : ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة .

إن العالم كله الآن يشكو الثمر المر ، من جراء الانحراف عن القيم الدينية والخلقية ، التى جاء بها الأنبياء وعلى رأسهم خاتمهم : محمد ﷺ .

نشرت الصحف فى الآونة الأخيرة : ما يشكوه الناس فى أوربا وأمريكا ،

---

(١) النحل : ٦١ . (٢) الشورى : ٣٠ . (٣) آل عمران : ١٦٥ .

من أمراض جنسية تناسلية تهدد البشر ، نتيجة الفوضى الجنسية ، أو ما سموه : (الثورة الجنسية) التى ظهرت فى الستينات ، واستباح بها الناس كل شىء ، واعتبروا العلاقة بين الرجل والمرأة كلاً مباحًا ، فكانت النتيجة ما يشكونه اليوم : مرض يسمى (الإيدز) يهدد الجميع ، الملايين من البشر رجالاً ونساءً فى أمريكا مصابون أو مهددون بهذا المرض ، الذى يفقد الناس المناعة ، وأمراض أخرى تجعلهم معرضين للسرطان ، سرطان المرأة فى عنق الرحم ، والرجل فى البروستاتا ، وأمراض أخرى كثيرة تهدد هؤلاء ، وتنتقل بالعدوى ، وهذا المرض الذى يسمى (الإيدز) يمكن أن ينتقل عن طريق نقل الدم ، ولم يجدوا له - حتى الآن - أى دواء .

أمراض معضلة أصابت الناس نتيجة انحرافهم ، وهذا يؤكد لنا قول الله تعالى : ﴿ . . . وَلا تَقْرَبُواْ الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) ، وقول النبى ﷺ : « لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا » (٢) ، الطاعون يشير إلى الأوبئة الجماعية ، والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، أمراض لم يعرفها من قبلهم، إنما هى أمراض نتيجة الإباحية .

ومن العجب أن هذه الإباحية التى يشكو منها الغرب اليوم ، تنتقل إلى بلادنا ، لا ننقل عن القوم العلم ، ولا التكنولوجيا ، ولا حسن التنظيم ، إنما ننقل عنهم أسوأ ما عندهم ، ندع خير ما عند القوم ، وننقل شر ما عندهم ، أرأيتم أين نحن أيها المسلمون ؟

إلى متى نظل على هذه الحال ؟

---

(١) الإسراء : ٣٢ .

(٢) رواه ابن ماجه - وهذا لفظه - والبزار والبيهقى من حديث ابن عمر ، ورواه الحاكم أيضًا ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان : ٣٩٩ ، ١٤٣٣) .

قد جاءتنا النذر فهل نفيق ؟ هل نرجع ؟ هل نتوب ؟ هل نقول : ﴿ ... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

نرجو أن نكون كذلك ، اللهم اجعلنا من التوابين ، واجعلنا من المتطهرين واستغفروا ربكم ، إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

أحب أن أنبه أخواتنا المصليات تنبيهًا لا بد منه :

إنه ليسرنا أن تحرص المرأة المسلمة على الصلاة ، ولا بأس أن تحضر المساجد لتشارك فى العبادة ، وتستمع إلى الموعظة ، فالمرأة نصف المجتمع ، ومن حقها أن تتفقه فى دينها ، وأن تتذكر ما يجب عليها ، والذكرى تنفع المؤمنين ، ولقد قال النبى ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (٢) .

وإنى من الذين يدعون أن يكون فى كل جامع من الجوامع ، مكان للمرأة المسلمة تصلى فيه ، وتنتفع فيه بالعلم كما ينتفع الرجال ، وبخاصة أن فقهاءنا قالوا : إن المرأة التى لا تذهب إلى المسجد يجب على زوجها أن يعلمها ، ويجب على أبيها أن يفقهها ، حتى يمكنها أن تستغنى بالبيت عن المسجد ، ولكن إذا كان الزوج غير قادر على التعليم ، وكان الأب غير قادر على التفقيه ، فمن أين تتعلم المرأة وتتفقه فى دينها ؟ فقد مضى زمن كان الرجل فى حاجة إلى من يعلمه ويفقهه ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، وقد ضل من كانت العميان تهديه !

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم من حديث ابن عمر ، وأبو داود من حديث أبى هريرة وسنده حسن ، وهو فى الموطأ ، وتتمة الحديث عند أبى داود : « وليخرجن تفلات» أى غير متطيبات (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٣/ ٤٣٨ ، الحديث ٨٦٠).

وهناك تنبيه خاص بالأخوات المصليات ، ففى الحديث الصحيح : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة : أنصت - والإمام يخطب - فقد لغوت » [1] ، أذهب أجره وأبطل ثوابه ، حتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجوز ، لأن كل إنسان إذا أعطى نفسه الحق فى أن يأمر وينهى ، لم يكن من وراء ذلك إلا الضجيج والتشويش، فأولى بكل إنسان أن يسكت .

فلا يجوز لأخواتنا المؤمنات ، اللاتى يحضرن إلى هذا المسجد ، أن يشوشن على أخواتهن .

إن للمساجد آدابًا ، وإن للجمعة آدابًا ، وإن لهذا الأماكن حرمات ، فينبغى أن نصونها ، ونسعى إليها .

شىء آخر أريد أن أنبه عليه : وهو أن المسلم كلما ذهب مبكرًا إلى صلاة الجمعة، كان ذلك أفضل له عند الله ، وفى الحديث : « إذا كان يوم الجمعة ، وقفت الملائكة على باب المسجد ، يكتبون الأول فالأول ، ومثل المهجر كمثل الذى يهدى بدنه ، ثم كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشًا ، ثم دجاجة ، ثم بيضة ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر » [2] ، أى طووا سجل الدوام ، ومن جاء بعد ذلك جاء متأخرًا .

---

(١) رواه البخارى ،ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة وقوله : « لغوت » قيل معناه خبت من الأجر ، وقيل تكلمت ، وقيل أخطأت ، وقيل بطلت فضيلة جمعتك ، وقيل : صارت جمعتك ظهرًا ، وقيل غير ذلك (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٤٧ ، الحديث ٣٧٧) .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه ، وابن خزيمة فى صحيحه بنحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ١/ ٢٤٥ ، الحديث ٣٧٤) ، والثواب المذكور فى الحديث هو ثواب التهجير أو التبكير إلى صلاة الجمعة ، لأنه من المسارعة فى الخيرات ، ومن المؤسف أن كثيرًا من المسلمين لا يحصلون يوم الجمعة على شىء من الثواب المذكور ، لا بدنة ولا حتى بيضة ، فهم يأتون المسجد والإمام يخطب ، وربما فى الخطبة الثانية ، وربما تحمل كثير من الخطباء تبعة هذا التأخير ، لأنهم لا يقولون للناس شيئًا ينفعهم ، غير أن المكث فى المسجد عبادة فى حد ذاته ، فالمرء فى صلاة ما دام ينتظر الصلاة ، وانظر : الترغيب فى التبكير إلى الجمعة وما جاء فيمن يتأخر عن التبكير من غير عذر ، من كتاب : (المنتقى : ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦) .

ومن جاء متأخرًا والإمام يخطب ، فعليه أن يصلى ركعتين خفيفتين ، صحيح أنه سيحرم من الخطبة ، أو من بعضها ، ولكن هو الذى أساء إلى نفسه بالتأخير ، وقد قال النبى ﷺ لمن جاء متأخرً وهو يخطب : « أصليت » ؟ قال : لا ، قال : «فصل ركعتين » (١) ، قال ذلك لسليك الغطفانى (٢) ، وأمره أن يتجوز فيهما ، أى لا يطيلهما .

هذه بعض آداب الجمعة ، نسأل الله عز وجل أن يفقهنا فى ديننا ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدًا .

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى ، واجعلنا من حزبك الغالبين ، وجندك الصادقين ، وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين .

اللهم أعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن ، وانصر إخواننا المجاهدين فى كل مكان ، وخذ بأيدى إخواننا المضطهدين والممتحنين فى سائر البلاد يا رب العالمين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) أخرجه البخارى ، ومسلم ، والشافعى ، وأحمد ، والترمذى (شرح السنة) للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (٤/ ٢٦٣) .

(٢) ورد اسمه فى رواية عن جابر قال : جاء سليك الغطفانى يوم الجمعة وهو - أي النبى ﷺ - يخطب ، فجلس ، فقال له : « يا سليك قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما » ثم قال : «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أخرجه مسلم (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٤/ ٢٦٤) .

(٣) آل عمران : ١٤٧ .

عباد الله ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (١) ، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

زلزال مصر [1]

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

مررت وأنا عائد من فرنسا لافتتاح الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية ، مررت بالقاهرة ، بعد أن حدث ذلك الزلزال الرهيب الرعيب ، الذى زلزل العمران والمبانى ، وزلزل معها القلوب والأنفس .

زلزل الناس زلزالاً شديدًا أمام هذا الحدث الغريب الذى لم يعهدوا مثله ، ووقف الناس يتساءلون : ما بال هذا الزلزال ؟ أهناك علاقة بين ما يحدثه الناس وبين الأحداث التى تحدث بهم ؟ أهناك علاقة سببية بين المعاصى والمفاسد التى تقع من البشر ، وبين ما ينزل بهم من كوارث يسميها الناس : كوارث طبيعية ؟

وقف الناس يتساءلون ، فمنهم من قال : هذه كوارث طبيعية ، تحدث فى كل بلاد الدنيا ، تنزل بالمؤمنين والكفار ، والمتقين والفجار ، ولا علاقة لها بطاعة ولا معصية ، ولا باستقامة ولا انحراف ، ما بالكم تربطون كل شىء بالدين ، وتريدون أن تدخلوه فى هذه المسألة ؟

وهناك من يقول : لا ، إن هذه الكوارث التى تنزل ، لا تنزل اعتباطًا ، ولا تقع جزافاً ، إن هذا الكون فى قبضة الله تبارك وتعالى ، يدبر أمره ويعلم كل صغيرة وكبيرة فيه ﴿ . . . وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] .

هذا الكون لا يسير عبثًا ، إن الله هو الذى يسيره ، إن الله هو الذى يقدر كل ما فيه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [3] ﴿ . . . وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [4] .

---

(١) هو الزلزال الذى وقع فى مصر فى ١٢ من أكتوبر عام ١٩٩٢ م ، وقد صاغ الأستاذ القرضاوى فى تلك الحادثة شعرًا نشر فى ديوانه : المسلمون قادمون (ص ١٠٣ - ١٠٦) .

(٢) الأنعام : ٥٩ . (٣) القمر : ٤٩ . (٤) الفرقان : ٢ .

كل ما يجرى فى العالم العلوى ، أو فى العالم السفلى ، كل ما تمور به الأرض، وكل ما يتحرك فى السماء ، كل نبتة تنبت ، كل نجم يطلع ، وكل ذرة فى هذا الوجود ، كلها بإذن الله تعالى وتقديره .

هذا الكون من الذرة إلى المجرة فى يد الله تبارك وتعالى ، فإذا أخرج بعض الأحداث من حيز العدم إلى حيز الوجود ، فلا بد من أن وراء ذلك حكمة .

الله هو الذى يزلزل الأرض ، الله هو الذى يجرى الأنهار ، الله هو الذى يرسل الرياح ، ولكن لماذا يظهر الزلزال فى وقت دون وقت ، وفى مكان دون مكان ، وبمقدار معين دون آخر ، لماذا ظهر هنا فى هذا المكان وظهر فى هذا الزمان ، وظهر بقوة (خمسة وكذا من عشرة) ، واستمر كذا وكذا ثانية الله الذى يقدر ذلك ، ولا يفعل الله شيئًا عبثًا ، لا يفعل شيئًا إلا لحكمة ارتضاها ، هذا ما يعتقده المؤمنون .

الغربيون وتلاميذهم يعتقدون أن الله بمعزل عما يجرى فى الكون ، حتى الذين يعتقدون أن الله هو خالق الكون قالوا : إن الله خلق الكون وتركه ، كهذه الساعة فى يدنا ، صنعتها مصانع سويسرا ولا تدرى ماذا حدث بعد ذلك ، هى تقف وحدها . . . تتحرك ، لا يعلم صانعها عنها شيئًا ، هكذا يقولون عن العلاقة بين الله والعالم .

ولكن هذا مناف كل المنافاة للعقيدة الإسلامية ، نحن نعتقد أن الكون فى قبضة خالقه ومدبره ، الصغيرة والكبيرة فيه تجرى بأمره ، وهو بهذا إذا حدث فيه شىء ، فلا بد أن الله تعالى أحدثه لسبب ، لحكمة .

هذه الزلازل التى نراها فى أماكن شتى ، تكون أحيانًا ضعيفة ، وتكون أحيانًا قوية ، تكون أحيانًا خفيفة ، وأحيانًا عنيفة ، أحيانًا تأتى وتدمر ، وأحيانًا تكون هزة لا تؤثر .

هذه الفيضانات التى تغرق الناس ، وتغرق المساكن ، وتهدم البيوت ، هذه الرياح الهوج ، التى لم يسلم منها بلد مثل أمريكا وغيرها ، هذه البراكين التى تنفجر وتثور ، دون أن يستطيع أحد إيقافها ، هذه الكوارث التى يقول الناس عنها : طبيعية ، وبعضهم يقول : إن هذا من غضب الطبيعة . . . الطبيعة غضبت ، وما هذه الطبيعة الصماء الخرساء ؟ إن الطبيعة لا تغضب ، الطبيعة لا تسير نفسها .

الذى يسير الطبيعة ويسير الكون كله هو الله تبارك وتعالى ، وهو سبحانه حينما يجرى هذه الأحداث يجريها بأقدار .

وهنا يقف المؤمنون أمام هذه الأحداث وقفة تأمل وتدبر وعظة واعتبار ، فالمؤمن يعتبر بكل شىء ، ويتعظ من كل حدث ، ويأخذ منه درسه ، ولا يمر عليه بأذن صماء ، ولا بعين عمياء ، ولا بقلب أغلف ، إنما يفتح له أذنه ، ويفتح له عينه ، ويفتح لهذا الحدث قلبه ، ليعتبر ويتعظ .

إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يلقننا دروسًا بمثل هذا الحديث ، أراد أن يعلمنا أن هذا ابتلاء ، فحياة الإنسان قائمة على الابتلاء : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ... ﴾ (١) ﴿ ... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٢) .

يبتلى الإنسان بالشر ويبتلى بالخير ، وقد يأتى الشر بالخير ، ورب ضارة نافعة ، وكم من منحة فى طى محنة ، قد تأتى بعض الكوارث بأشياء طيبة ينتفع منها الناس إذا أحسنوا الانتفاع وتلقنوا الدرس جيدًا .

هو ابتلاء ، والله يبتلى الناس جميعًا ، كافرهم ومؤمنهم ، وقد يبتلى المؤمنين بأكثر مما يبتلى الكافرين ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾(٣)، هذه واحدة .

حكمة ثانية هنا : أن فى هذا الحدث تنبيهًا للناس ، تنبيهًا للغافلين ، وإيقاظًا للنائمين ، أراد الله أن ينبههم إلى أشياء :

أن ينبههم على طلاقة القدرة الإلهية ، ونفوذ المشيئة الإلهية ، أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا فإنه يقول له : كن فيكون ، تتزلزل الأرض ، وتهيج الرياح ، وتفيض المياه ، وتغرق الأنهار والبحار ، ويتحرك كل شىء أراده الله تعالى أن يتحرك ، يسكن كل شىء أراد الله تعالى أن يسكن ، لا بد للناس أن يعرفوا مدى طلاقة القدرة الإلهية التى لا يعجزها شىء .

---

(١) الإنسان : ٢ . (٢) الأنبياء : ٣٥ . (٣) العنكبوت : ٢ .

ومن ناحية أخرى تنبيه للإنسان على أن يعرف حجمه فى هذا الكون ، أيها الإنسان: ما أنت ؟ أيها المغرور بنفسك . . . أيها الثانى لعطفك . . . أيها المصعر لخدك . . . أيها المتمطى برأسك : ما أنت فى هذا الكون ؟ أنت لست شيئًا مذكورًا، لا تعرف ماذا يحدث لك بعد لحظة .

الإنسان الذى استطاع أن يفعل ما يفعل ، الإنسان فى الغرب ، فى أمريكا ، فى غيرها ، صنع الكمبيوتر ، وغزا الفضاء ، ووصل إلى القمر ووقف على سطحه ، ويحاول أن يصعد إلى كواكب أخرى ، ولكن أمام هذه الأحداث لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، يمكنه أن يقول : هناك احتمال لزلزال يقع ، ولكن متى يحدث بالضبط ؟ وفى أى مكان بالضبط ؟ وما مقدار قوته بالضبط ؟ لا يستطيع أن يعلم ذلك ﴿ . . . وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ (١) .

ينبغى أن يعرف الإنسان حجمه ، ويعرف مدى قوته ، الإنسان المغرور ، المختال الفخور ، ينبغى أن يعلم : هذا هو شأنه فى هذا الوجود ، إنه لا يملك هذا الكون.

كان الغربيون يقولون : استطاع الإنسان بالعلم أن يقهر الطبيعة ، ويقهر الكون المادى من حوله ، وكذبوا ، ما استطاع الإنسان أن يقهر الطبيعة .

استطاع أن يذلل كثيرًا حسب قوانين التسخير الإلهى لهذا الكون ، لأنه سخر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ، ولكن تظل هذه الطبيعة وهذا الكون أقوى منه ، يقف أمامها عاجزًا مشلولاً لا يستطيع أن يصنع شيئًا ، هذا هو الإنسان .

كان الإمام على رضى الله عنه يقول : مسكين ابن آدم ، تؤلمه البقة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة » ، البقة حشرة صغيرة تؤلمه ، والآن عرفنا أن ميكروبًا . . . فيروسًا صغيرًا يستطيع أن يمرض الإنسان وأن يقتله ، وهو شىء لا يرى إلا بتكبيره ملايين المرات ، وتقتله الشرقة إذا شرق . . . يقتل بالذبحة . . . يقتل بالسكتة . . . يموت فى لحظة . وتنتنه العرقة : إذا عرق أنتن جسده ، وساءت رائحته ، هذا هو

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

الإنسان ﴿ . . . وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (١) ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (٢) .

أراد الله تعالى أن يعرف الإنسان حجم نفسه ، وقدرة نفسه ، وعلم نفسه ، وأن يعلم أن القدرة كلها من الله ، وأن العلم كله منه ، وأن الحكمة كلها لله .

أراد الله تعالى أن ينبهنا أيضًا على قيمة هذه الدنيا التى يتشبث الناس بها ، ويحرصون عليها ، ويلهثون وراءها ، ويتهافتون عليها تهافت الذباب على الشراب ، أو يتقاتلون عليها تقاتل الكلاب على الجيف ، هذه الدنيا لا تساوى شيئًا ، الإنسان يكون فى بيته ولا يدرى أنه بعد قليل سينهدم به بيته ، وتزلزل الأرض من حوله ، فإذا البنيان الشاهق ينهار ، وإذا هذا الإنسان لا شىء ، وترى الناس بعد لحظات قد ماتوا ، والعمران قد خرب ، هذه هى الدنيا :

جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الآلام والأكـــدار

ومكلف الأيام ضد طباعهـــا ... متطلب فى الماء جذوة نـــار

الناس يستبعدون الموت ، ويظنون أن الموت شىء بعيد ، والموت أقرب إلى أحدهم من شراك نعله .

كل امرىء مصبح فى أهلـه ... والموت أدنى من شراك نعله

﴿ . . . وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

أراد الله تعالى أن ينبه الناس على هذا كله ، وأن ينبههم على شىء عظيم ، أراد أن يذكرهم بأمر عظيم : بزلزلة الساعة ، الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ (٤) .

---

(١) النساء : ٢٨ .

(٢) الشورى : ٣١ .

(٣) النحل : ٧٧ .

(٤) الحج : ١ ، ٢ .

زلزلة فى أقل من دقيقة ، بخمس درجات وبعض الكسور بمقياس (رختر) !! ما بالكم إذا كانت هذه الزلزلة بمقدار عشر درجات ، أو عشرين ، أو ثلاثين ؟! ما بالكم إذا استمرت دقيقتين ، أو ثلاثًا ، أو أربعًا ، أو عشرًا ، أو أكثر من ذلك؟! ماذا تكون هذه الزلزلة ؟!

تلك زلزلة يوم القيامة : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴾ (١): الجبال الراسيات الشامخات تبس بسًا ، وتفتت تفتيتًا ، حتى تصبح كالهباء : الذرات التى نراها فى شعاع الشمس ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ (٢) : هذه الجبال تصير كالصوف المندوف ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ (٣) .

هذه زلزلة يوم القيامة ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (٤) ، هذه زلزلة الساعة ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ : زلزالها المترقب المنتظر ، الذى هو الزلزال الحقيقى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ : نفضت كل ما فيها نفضًا ، ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَالَهَا﴾ : ما الذى حدث لها ؟ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(٥) ، الله هو الذى أمرها أن تفعل ذلك ، فلم تملك إلا أن تطيع الأمر .

هذه زلزلة القيامة : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ . . . ﴾ (٦) أهناك أكثر حرصًا من الأم على طفلها ، خصوصًا إذا كان فمه فى ثديها . . . التقم الثدى ليرضع ؟ إن الله لم يقل : تذهل كل مرضع، بل قال : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، المرضع : المرأة فى وقت الرضاع، ولكن المرضعة : التى ترضع بالفعل ، أى أن طفلها كان ملتقمًا ثديها ، هنالك نسيت طفلها ، فكل إنسان لا يذكر إلا نفسه ، عند ذلك الهول العظيم كل

---

(١) الواقعة : ١ - ٦ . (٢) القارعة : ٥ . (٣) طه : ١٠٥ - ١٠٧ .
(٤) الحاقة : ١٤ ، ١٥ . (٥) الزلزلة : ١ - ٥ . (٦) الحج : ١ ، ٢ .

يقول : نفسى نفسى ، حتى الولد وفلذة الكبد تنساه الأم ... الأم الرؤوف ... الأم الحانية .

رأينا فى هذا الزلزال البسيط البسيط ، واليسير اليسير بالنسبة لزلزال الآخرة ، رأينا المرأة تنزل من بيتها وتنسى أن لها أطفالاً ، وحين تنزل تقول : أين أولادى ؟ ومن الناس من نزل بالملابس الداخلية ، حتى أن بعض المحلات التى تبيع الملابس كانت تلقى بها على النساء ليتسترن ، ومنهم من خرج من الحمام والصابون على جسمه ، هكذا الحياة عزيزة عند الناس .

هذا يذكرنا بيوم القيامة : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

حينما قال النبى ﷺ : « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً » قالت عائشة : الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض ؟! قال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»(٢)، من عنده - فى ذلك اليوم - عقل يفكر فى الغريزة أو فى الشهوة أو فى المرأة ؟! ﴿ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٣) .

أراد الله تعالى أن يذكرنا بمثل هذه الأحداث ، فقد نسى الناس القيامة ، مشكلة الناس أن القيامة بمعزل عن عقولهم ، كأنهم مخلدون ، وكأن الموت على غيرهم قد كتب ، العقدة عند الناس أنهم لا يفكرون فى الآخرة ، ولا يرجون لقاء الله ، وهذا هو الخطر .

---

(١) الحج : ٢ .

(٢) رواه عن عائشة البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه .

وروى الطبرانى فى الأوسط بإسناد صحيح عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة » فقالت أم سلمة : فقلت : يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ! فقال : « شغل الناس » قلت : ما أشغلهم ؟ قال : « نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الخردل » ، وثم رواية أخرى ذكرها الطبرانى عن سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٩٢٥ - ٩٢٦).

(٣) عبس : ٣٧ .

ما أحوج الناس أن يتذكروا الآخرة ، لو تذكروا الآخرة ووضعوها نصب أعينهم ، لحلت مشكلات كثيرة ، بل لحلت المشاكل كلها .

وشيء مهم وراء هذا كله وهو الثمرة : هو تنبيه العصاة ليتوبوا ، والضالين ليهتدوا ، والمنحرفين ليستقيموا . تنبيه الناس ليرجعوا إلى الله ليقرعوا بابه ويقولوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

هذه المواقف لا بد من أن ترد الناس إلى فطرتهم ليقولوا : يا ربّ ، فمن يدرى: لعلهم فى هذه اللحظة يقضون نحبهم ، وينتهى أجلهم .

الدرس المهم : أن يتعلم الناس التوبة من العصيان ، أن يتطهروا ويغتسلوا من ذنوبهم . . . من أدرانهم . . . من أطماعهم . . . من شهواتهم ، أن يولدوا من جديد .

الناس أمام الشدائد والبلاء أصناف وأنواع :

هناك صنف عرف الله ، ووضع يده فى يد الله ، واستقام على منهج الله ، أحل الحلال وحرم الحرام ، وعرف أن الخير كل الخير فى اتباع منهج الله ، والسير خلف رسول الله ﷺ ، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون ، عرفوا الله فى الرخاء ليعرفهم فى الشدة ، كما جاء فى وصية النبى ﷺ لابن عباس : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ،تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . . . » (٢) ، هذا هو الصنف الأول ، يشعر أنه دائمًا بحاجة إلى الله فى اليسر والعسر ، فى الفقر والغنى، فى النعماء والبأساء ، فى الصحة والسقم ، فى كل حال ، يعلم أنه فقير إلى الله عز وجل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فهو دائمًا مع الله .

هناك صنف ثان : إذا كان فى عافية ورخاء استرخى ، ونسى ربه ، ولم يذكر إلا نفسه ، ولكن إذا جاءت الشدة ، إذا أحاط به البلاء ، سرعان ما يرجع إلى

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) خرجه الإمام أحمد من رواية حنش الصنعانى عن ابن عباس ، ورواه الترمذى بلفظ آخر وقال : حديث حسن صحيح ، وهو الحديث التاسع عشر من الأحاديث الأربعين النووية ، وانظر (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلى .

ربه ، ويعلم أن هذه المصيبة إنما جاءت لترده إلى الله ردا جميلاً ... لتأخذ بيده إلى الله ... ليقف بين يدى ربه متضرعًا مبتهلاً ... ليتوب إلى الله توبة نصوحًا .

والله تعالى ليس على بابه حاجب ولا بواب ، من رجع إليه تلقاه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب : ﴿ ... إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١) ، هذا هو الصنف الثانى ، ينسى ساعة الرخاء ، ولكن ساعة الشدة يعرف الله ، ويرجع إليه رجوعًا صادقًا ، ويستقيم على أمره ويثبت عليه .

وصنف ثالث : وهو الذى ينسى الله فى الرخاء ، ويذكره ساعة الشدة ، حتى إذا ما انفرجت الأزمة ، وحتى إذا ما ذهبت الغمة ، عاد إلى طريق الضلال ثانيًا ، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وهذا شأن المشركين الذين حدث الله عنهم فقال : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾(٢) .

ولأنهم دعوا الله مخلصين له الدين استجاب الله لهم ، لأنهم فى هذه اللحظات رجعوا إلى الفطرة السوية ، ونسوا هبل واللات والعزى والأوثان ، والأصنام : ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴾ (٣) هكذا شأن هؤلاء يعرفون الله ساعة الشدة وبعد ذلك يرجع كل شىء إلى ما كان عليه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ للهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾(٤) .

وهناك صنف أسوأ من هذا الصنف : صنف قسا قلبه حتى أصبح كالحجارة أو أشد قسوة ، تنزل به البلايا ، وتحيط به المصائب والكوارث ، ولكنه لا يقول : يا رب

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .
(٢) يونس : ٢٢ .
(٣) يونس : ٢٣ .
(٤) الزمر : ٨ .

يارب ، كأولئك الملاحدة والجاحدين الذين أنكروا على من ربط هذا الحادث بالدين، وأنه وقع بسبب المعاصى ، فقالوا : ما هذا الفكر الخرافى ؟ ما هذا الضلال؟

هؤلاء الناس لم يستطيعوا أن يفهموا الدرس ، ولذلك يقول الله فى أمثالهم : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (١) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

من فضل الله تبارك وتعالى أنه حينما ينزل بالناس البأساء والضراء ، لا يريد أن ينتقم منهم ، ولكن ليعلمهم ... لينبههم ... ليذكرهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ ﴾ (٣) ، الفساد هنا : يعنى اختلال أمر الحياة ... المصائب ... الكوارث... الغلاء ... البلاء ... الأمراض ... الأوجاع ... التلوث ، وهذا الفساد بماذا يقع ؟ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ ﴾ بمعاصيهم ... بذنوبهم ، ولماذا يقع : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ ﴾ ، أى أن الله لا يجزيهم بكل ما عملوا، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾(٤) إنما يؤاخذهم ببعض ما عملوا ، ولماذا يؤاخذهم ببعض ما عملوا ؟ ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ عسى أن يفهموا الدرس ، لعلهم يرجعون ، لعلهم يتوبون .

كان بعض السلف إذا أصابه أدنى شىء ، يقول : هذا بشؤم معصيتى ، حتى إذا كشرت امرأته فى وجهه ، أو تخانقت معه فى أمر من أمور البيت ، قال : ما الذى جعل المرأة تفعل معى كذا وكذا هذا اليوم ، لا بد أنى قد ارتكبت معصية ، إذا حرنت عليه دابته يقول : لا بد أنى ارتكبت مخالفة ، قال بعضهم : إنى لأعرف شؤم معصيتى فى سوء خلق دابتى .

---

(١) المؤمنون : ٧٦ .
(٢) الأنعام : ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) الروم : ٤١ .
(٤) النحل : ٦١ .

هكذا أصحاب القلوب ... أصحاب البصائر ... أصحاب الحس المرهف ، يردّون الأمر إلى أنفسهم ، كما قال الله تعالى عن الربانيين حينما هزموا فى المعركة: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) . قبل أن يسألوا النصر والتثبيت ، سألوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم فى أمرهم ، فلا بد أنهم فرطوا أو قصروا، هذا هو شأن الإنسان المؤمن ، يرجع باللائمة على نفسه .

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) ، ولكن صنفًا من الناس تنزل بهم الشدائد ولا يرجعون ... ولا يتوبون ، ولا يتضرعون ... لا يقولون : يا رب ، يقولون كل شىء إلا الله تبارك وتعالى ، يقول الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣)، أصحاب القلوب القاسية ، الحجرية هذه ، لا تنفع فيها الشدائد ولا غير الشدائد والعياذ بالله .

يا أيها الإخوة : هذه المصائب والأحداث التى يجريها علينا العزيز الجبار ، الواحد القهار ، جديرة بأن توقظ الناس من سباتهم ... أن تنبههم إلى ما فيها من دروس وعبر ، حتى يفيقوا ويرجعوا إلى الله تبارك وتعالى .

حينما مررت بمصر سألنى بعض الأقارب فقالوا : كنا فى ذلك الوقت لا نعرف ماذا نقول : أليس هناك أذكار أو أدعية نقولها عند الشدة ؟

قلت : هناك الكثير الكثير جدًا ، هناك أدعية وأذكار تسمى (أذكار الكرب) و(أدعية الكرب) ، يلجأ الإنسان إليها حينما ينزل به كرب خاص ، أو ينزل بالأمة كرب عام ، منها ما رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ، ورب الأرض ، رب العرش الكريم»(٤)،

---

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الروم : ٤١ . (٣) الأنعام : ٤٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الدعوات : باب الدعاء عند الكرب ، ومسلم فى الذكر والدعاء : باب دعاء الكرب .

وفى جامع الترمذى عن أنس ، أن رسول الله ﷺ ، كان إذا حزبه أمر ، قال : « يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » (١) ، وعن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ ، كان إذا أهمه الأمر ، رفع طرفه إلى السماء فقال : « سبحان الله العظيم » ، وإذا اجتهد فى الدعاء قال : « يا حى يا قيوم » (٢) .

روى سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ قال : « دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت ﴿ لا إِلَه إِلا أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالمِينَ ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » (٣) ، حينما التقمه الحوت نادى فى الظلمات : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر ، فى وسط هذه الظلمات لم يطلب النجاة لنفسه ، ولكنه قال : ﴿ لا إِلَه إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالمِينَ ﴾ فنجاه الله ولفظه الحوت ، سأل رجل النبى ﷺ فقال (٤): يا رسول الله ، هل كانت ليونس خاصة ، أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمع إلى قول الله - عز وجل - : ﴿ . . . وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥) .

المؤمنون إذا لجأوا إلى الله موحدين : ﴿ لا إِلهَ إِلا أَنتَ ﴾ مسبحين منزهين : ﴿سُبْحَانَكَ ﴾ معترفين بالتقصير ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالمِينَ ﴾ فإن الله يفرّج عنهم .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات ، وفى سنده يزيد بن أبان الرقاشى ، وهو ضعيف (زاد المعاد بتحقيق كل من : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، ٤/ ١٩٧) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : باب ما يقول عند الكرب ، وفى سنده إبراهيم ابن الفضل المخزومى ، وهو متروك (زاد المعاد : ٤/ ١٩٧) .

(٣) رواه الترمذى ، واللفظ له ، والنسائى ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى ، وذكره ابن كثير فى تفسيره وعزاه للمسند ، وللنسائى فى (اليوم والليلة) ، وصحح شاكر إسناده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٤٧٦ ، الحديث ٩٢٢) .

(٤) هذه الزيادة فى رواية الحاكم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ٩٢٢ ، ١٠٤١) .

(٥) الأنبياء : ٨٨ .

أدعية الكرب كثيرة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، الاستغفار [1] . ويكفى الإنسان إذا لم يتذكر شيئًا أن يقول : يا رب . . . يا رب يا حى يا قيوم . . . يا الله يا الله . . . سبحان الله . . . الحمد لله . . . لا إله إلا الله . . . الله أكبر [2] .

هذا ما ينبغى أن يشغل به المؤمن نفسه فى ساعة الشدة ، أما أن يفعل ما يفعله بعض الناس ، صراخ وولولة ، فهذا ليس من شأن المؤمنين .

لا بد من أن يتربى الإنسان التربية التى يواجه بها الشدائد برباطة جأش ، وباللجوء إلى الله تبارك وتعالى ، وليس هناك إلا الله فى مثل هذه المواقف .

هذه دروس تعلمناها من هذه الكارثة ، وتعلمنا أن هناك أناسًا - للأسف - يتاجرون فى أرواح الناس ، فمعظم الذين ماتوا إنما ماتوا بأولئك الطامعين من المهندسين والمقاولين ، الذين يبنون بنايات لا يراعون فيها ما ينبغى أن تكون عليه ، ليكسبوا من وراء ذلك وإن مات الناس وهلكوا ، هؤلاء الذين يتقاتلون على جيفة الدنيا ، ولا يبالون بما يصيب الخلق ، ينبغى أن يراجعوا أنفسهم .

يا أيها الإخوة : هذه الأمة لا يصلحها إلا الدين ، الدين هو الذى يصنع أخلاقها، ويحيى ضمائرها ، ويربطها بالله تعالى وبالآخرة ، هذا الدين هو الذى يستطيع وحده أن يحيى الأمة ويجعل منها خير أمة أخرجت للناس .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يلطف بنا فى قضائه وقدره ،وأن يذهب عنا شر الزلازل والنوازل ، وأن يقينا ما ظهر منها وما بطن ، وألا يهلكنا بما فعل السفهاء منا، اللهم آمين .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، إنه سميع قريب ، فاستغفروه يغفر لكم.

* * *

---

(١) مما جاء فى فضله حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كلّ ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والبيهقى ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، كلهم من رواية الحكم بن مصعب ، قال الذهبى : والحكم فيه جهالة ، وقال المنذرى فى مختصر السنن : لا يحتج به ، ودافع عنه الشيخ شاكر فى تخريجه للمسند ، وصحح إسناده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٤٦٩ ، الحديث ٩٠٥) .

(٢) انظر فى فضل هذه الكلمات وما ورد فيها من ترغيب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : كتاب الذكر والدعاء) .

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية ، فى ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا ، وعن شمائلنا ، ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا .

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى ، وقلوبنا على التقى ، وأنفسنا على الحب فيك ، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل .

اللهم لا تجعل للشيطان على أنفسنا سبيلاً .

اللهم أعنا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا ، وتب علينا توبة نصوحًا .

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا ، وارفع مقتك وغضبك عنا ، وآمنا فى أوطاننا ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا ، سخاء رخاء ، وسائر بلاد المسلمين .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

اللهم انصر إخواننا فى فلسطين ، وانصر إخواننا فى البوسنة والهرسك ، وانصر إخواننا فى جامو وكشمير ،وانصر إخواننا فى كل مكان يقاتلون فيه ، وانصر إخواننا المضطهدين المعذبين .

اللهم فك بقوتك أسرهم ، واجبر برحمتك كسرهم ، وتول بعنايتك أمرهم .

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) الحشر : ١٠ . (٢) الأحزاب : ٥٦ . (٣) العنكبوت : ٤٥ .